

كلمة العميد السابق لكلية الآداب والعلوم الانسانية الدكتور جوزيف لبكي
في الدكتور عبد الرؤوف سنو

أفترضها لأقدم تحية تقدير وإكبار للحركة الثقافية في أنطلياس لما تقوم به من جهود في المجالات الثقافية والفكرية والوطنية في لبنان والمشرق العربي؛ وإني لشاكر لها لفتنتها النبيلة نحو زميل عالم، له فضل كبير في التحبير والتدريس والتأليف، هو البرفسور عبد الرؤوف سنو.

أصحاب السعادة والسيادة والقيادة والريادة،
أيها الحفل الثقافي،
أيها الزميل المكرم البرفسور عبد الرؤوف سنو،

أنا سعيد الليلة أن أتحدث عن صديق مكنّ الوفاء بيننا، على توافق مزاج، وتآلف رأي، وأصايل أيام، وتناسق هوى، ومشاركة هدف وعمل وتاريخ ورؤيا.

أيها المثقفون

الدكتور عبد الرؤوف سنو من دوحة عائلية أخصبت صلاحاً وضميراً وذمةً وصدقاً واستقامةً تعامل، وشرف تجارة، وبراعة علم، ومكانة سياسية ودينية واجتماعية، اغتذى منها.

اكتشف في عمله دائرة الطموح، وعلامات الطريق في حياة مشتركة منفتحة على أهله والمحيط، وانطوى في الرحاب تلميذاً في معاهد خاصة، على مشقة وجهد. ثم يمم نحو الجامعة ليحصل شهادات عليا في لبنان وألمانيا، فنال الدكتوراه في فلسفة التاريخ من جامعة برلين الحرة، وديبلومات في التعليم العالي والتنمية الدولية والتاريخ الحديث.

وراح يُصارغ، يحدوه إلحاح وإصرار على الكشف، فانفتحت أمام عينيه آفاق وظهرت طاقاته ومواهبه، فكتب ونشر وأرخ وصاغ وحاضر وناقش لا يخشى المناخات العلمية حتى أصبح من كبار المؤرخين ومن فرسان العلم بكل ما في ذلك من شمول ودلالات.

توزعت قطفه التاريخية على مجموعة من الكتب (ثمانية) والبحوث والمقالات والدراسات، يمكن تصورها بمواضيع ستة تناولت :

- أ- ألمانيا : قوميتهما وتجلياتها الوجدانية فكراً واقتصاداً وسياسةً ومجتمعاً وعنصريةً، مآزقها ومنعطفاتها التاريخية وفرصها، وإرادة التوحد والتلاقي، منوهاً بثقافتها الديمقراطية والاعتراف بالآخر. فلم يحابها، وهي التي سخت عليه بالمنح البحثية، فصنّفها علمياً من الدول الامبريالية، وأكد تلاعبها بالحركة القومية العربية، وعدم وفائها بطموحات العرب الاستقلالية.
- ب- العرب وقضية فلسطين، والصراع العربي الاسرائيلي.
- ت- الدولة العثمانية والعرب.
- ث- الدولة العثمانية وروسيا وبريطانيا وحركة الاصلاح، ونمو الاتجاهات الاسلامية والنزعات الكيانية في السلطنة.
- ج- الاسلام والمسيحية والتعايش بين العقيدتين. ويتحدث فيها عن الفتوحات الاسلامية والتسامح الديني، ويطلب من المسلمين اعتماد سلطة العقل والمعايير العلمية لنقد شرائعهم وتجاربهم

التاريخية. وتطرق إلى الوجود المسيحي في المشرق العربي، من الشراكة إلى الاضمحلال، وضرورة عدم تهميشهم مع المطالبة بالحفاظ عليهم كمعطى وطني واقتصادي وحضاري، عبر إقامة دولة ديموقراطية مدنية.

ح- لبنان الحديث والمعاصر، ومسألة النظام الطائفي والتعايش. ولعل كتابه القيم حرب لبنان (1975-1990)، من أهم الكتب التي تناولت أوضاع لبنان خلال الحرب، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بمنهجية علمية رصينة، بعيدة عن الأهواء السياسية والعصبيات وزوارب الطائفية، فأتى دراسة واقعية يصلح لكل مرحلة من تاريخ لبنان، وكأنه كتاب تصفية لرواسب الماضي، وحاجة ضرورية لكل لبناني، ينتمي إلى أي مكون اجتماعي.

ويرى سنو أن اللبنانيين وقعوا ضحية جهلهم بالجغرافيا السياسية، فتقاتلوا وتقسام الاسرائيليون والسوريون النفوذ في بلادهم، ما أدى إلى تفكك أوصال الدولة، وتصدع المجتمع، والقضاء على البنى التعليمية والثقافية والسياسية.

وتحفظ البرفسور سنو على اتفاق الطائف، في أن يكون قد نقل اللبنانيين إلى حالة من التكاذب، يُطلق عليها مصطلح العيش المشترك أو العيش الواحد، وخُصص إلى أن لبنان سيظل يُراوح مكانه بين حدي الوفاق والنزاع، ما يجعله في خطر، مجتمعاً ودولة، مرده إلى غياب هوية وطنية جامعة، وإلى خضوعه لتأثير الجغرافيا السياسية.

ويطرح سنو اشكاليات صعبة للبنان، الحاضر والمستقبل، وهي كيفية إلغاء النظام الطائفي السياسي، وإقامة دولة مدنية، ونظام ديموقراطي أكثر، من دون هيمنة المسلمين عليه، بصفتهم الأكثرية، ومن دون تخويف المسيحيين، بصفتهم قلة عددية.

ويعتبر إقامة الدولة المدنية الديموقراطية حلاً لكل أزمت لبنان، لكنه يرى تعثر ذلك، بسبب الانقسام السياسي-المجتمعي، والطائفية والمذهبية السياسية، والصراع الايديولوجي الذي أصبح يتمحور اليوم بين القومية اللبنانية والقومية الاسلامية ممثلة بولاية الفقيه.

أيها الحفل العلمي،

حمل الدكتور سنو ألية من المبادئ الضرورية لمعالجة مشاكل لبنان، فكان صريحاً وجريئاً متزناً، وباحثاً عن الحق والحقيقة، فلا التفاف ولا محاباة، مقتنعاً أن لبنان قد تضاءلت مساحته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ووقع تحت سيادة الذئاب والأغراب، فانقسم واقتتل أبناءه، واستبيح، وعمّ الطرش المتبادل، فدعى إلى الانفتاح والتلاقي الأصيل في ظل دولة عادلة قادرة وقوية، فبدأ كأنه طبيب متخصص بأمراض المجتمع اللبناني والعربي، وأن التاريخ عنده، وإن كان مبدئياً علم الماضي، فهو علم التغيير والتحول والتطور والتمدد والتعاون والاستشراف والتحديث، من دون تلون وممالة.

دكتور سنو راصد التحولات والسلوكيات والتعقيدات العصبية والحالات السياسية المتقلبة، عرض بوطنية وعلمية، وشعور سام، إنساني وحضاري، وبنظرة ثاقبة وحكم صحيح، وعبر ناصحة واضحة، ما يجب فعله ليبقى لبنان مساحة حرة وتلاق واختلاط سليم وديموقراطية لها فسحتها ومداها.

ويُفهم الدكتور سنو بأفكاره وكتاباتِه أنه :

- يحترم مقومات العيش كإرث حي وسلوك ديموقراطي، حديث ومتطور وعادل.
- ويتخوف من تكرار تجارب الماضي، ملحاً في جمع اللبنانيين وابعادهم عن الصغائر والضغائن والأحقاد والتكاذب والتسلط والتسييس.

ونحن نأمل من خلال دعوتِهِ أننا سنرحبُ يوماً بفجرٍ جديد، ونهتف جميعاً لصحوٍ وطني، ونغني لطمأينة المستقبل.

أيها الحفل الثقافي،

احترمَ الدكتور عبد الرؤوف سنو سقفَ المنهج التاريخي وضوابطه، باحثاً منقّباً في دور المحفوظات والمؤسسات العلمية، الغربية والعربية، عن وثائق وكنوزٍ علمية، ومخباتٍ، عمّقت معرفته وطوّرت ثقافته، فزاد تدقيقاً في المجريات والأحداث.

طرحَ الاشكاليات والفرضيات، ووضعَ ابحاثه في اطارها الجغرافي والسياسي والتاريخي، واعتبرَ أنّ الأسباب لا تفترضُ مسبقاً كمسلمات، فهي تبحثُ عن نفسها، فتابعها، وانتهى دوماً إلى نتائجٍ واستنتاجاتٍ وحقائق، أخرجها بأحكامه الصحيحة الدقيقة الرصينة، التي لم تُبِنَ على مُصادفاتٍ، فأضحت موثوقة لمن أراد أن يُدقق في فصول التاريخ ويستجلي غوامضه.

تميّز انتاجه بالتنوّع والشمول والموضوعية، فلم يغبَ عليه نقصٌ أو إلماخٌ، ولم تُشَبَّ كتاباته بمزاج، ولا سبيلٍ عليها لغامز، كلُّ ذلك على حُسن تركيز، وتكاملٍ رصفٍ وبُنْيَان، وترابطٍ وانسجامٍ ومنطق، وخضوعٍ لمقياسٍ واحد، على أنه يبقى لكلِّ كتابٍ أو بحثٍ ميزةٌ خاصةٌ تحليلاً ورؤية.

تنوّعت كتاباته التاريخية، فمن بشر إلى جماعاتٍ ودولٍ في مواقعٍ جغرافيةٍ متعددةٍ شملت بعضاً من أوروبا، وتحديدأ ألمانيا، والسلطنة العثمانية، ودول عربية، ومناطق من الشرق الأوسط وأفريقيا، ولبنان الذي كرّسَ له حيزاً واسعاً من اهتماماته.

دلّت كتاباته على استيعابٍ واسعٍ لجميع المواضيع التي أثارها وفهمها عميقاً، متصدياً لكلِّ بابٍ من أبوابها بروح من الجدّية والتجديد والجرأة، وسموّ التفكير والعلمية والمنهجية الصارمة، والمثابرة والجدد. أوليسَ الجدُّ نصفَ العبقرية؟

وانني على ثقة بأنه يعتز به وهنّ إذا خلدَ إلى راحة أو استراحَ إلى نعيم.

أيها النجد الأوفياء،

أحبّ الدكتور سنو المواضيع التي أرخَ لها بقطع النظر عن أهميتها أو حجمها؛ وبدا إخلاصه العقلي للعلم والبحث والتفكير والنقد والصياغة بلا هوى. وأوجد توازناً بين الواقعية والتاريخ، على تسلسلٍ وربط، ومحازرة واضحة لخلط الأزمنة، وكأني به علمٌ فضيلةً التجديد التاريخي، فلم يقفَ عند تحليلِ المألوفِ والعاديات، بل بحثَ في مسائلٍ وكلماتٍ ومعانيٍ وجُملاً ملتبسةً الدلالات والتفسير، وطرقَ أبواباً بعيدة، فاستخرج العبر، واستنهضَ الهمم، وأيقظ الضمائر التاريخية، ووصفَ العلاج، فقلّ من جراه في مضماره فهماً وتحليلاً وجدولةً وفهرسةً وجلاءً مضمون وإفادة.

باحثٌ عليم، دائمُ العناية، أصيلُ المعرفة، ثريُّ القلم، دقيقُ المعالجة على سعادةٍ داخليةٍ وارتياحٍ نفسي، فلا انحدار ولا حمى ولا غضب ولا انحياز.

أيها الأصدقاء،

حَمَلَ كتاباته التاريخية، همّاً حياتياً، فغاص بها وحلّق على مِراسٍ فنيّ مضمّن، فلا غموضَ فيه ولا تكلف، بل غزارةً مفيدة.

واضح التفكير، متأنّ بلا بلاغة، لم تلتبس عليه الأمور، ولا استحالت حلول، فجاءت أطروحته مطمئنة صائبة.

قارب المواضيع، بلا تصنّع ولا تفخيم، ولا موارد. فأنت يا سامعي، مع رجل ثقة، محترم الرأي، مُتمرسٌ بالفضائل التاريخية وقواعدها، غنيّ بالاستنتاج والتحليل والتقدير والتركيز والتمييز واستقراء الحق على سهولة وجديّة، لدرجة اعتبر بعضهم أنّ جزءاً من عُصاراته الفكرية جاءت قاسية، مرّة المذاق، غير أنّهم نسوا أو تناسوا أنّها كالدواء تشفي، وتقي من الأخطاء الوطنية، فكتابتها مرّة لفكره الضارب في التاريخ، والهادف إلى مستقبلٍ مشرقٍ مريح.

تقرأه بلذتين : لذّة التساؤل والعرض، ولذّة المضمون والبعد. فصفحاته مشحونة بالأرقام، وجناه وفير، وموضوعاته مهمّة، لها فضائلها المتنوّعة، فهي تقود إلى محطاتٍ وواحاتٍ، وإلى أغراضٍ ومباحثٍ ومطالبٍ على جاذبية. إنها دراساتٌ نقيّة، ضميره حدّ لها، عدلٌ في أحكامه، وأصاب في الرمية، وشعاره : "المعرفة التي لا تُفيد، كالجهالة التي لا تضر!".

أيها الأحياء،

تميّز أسلوب الدكتور سنو في براعة الاستهلال، وسهولة التعبير على فصاحة وبلاغة، وانسياقٍ معني، ما أكسب مؤلفاته رواجاً واستحساناً في الأوساط الفكرية والثقافية والسياسية الراقية.

لُغته متعافية مشرقة، سليسة، ، فلا مساحيقٌ مُصطنعة ولا تكلف. ألفاظه وقعٌ عبارةً وتجرواً وتطويغاً، وانتظامٌ زُمردٍ في سبلك على دقّة ووضوح.

نقيّ السبك، صافي العبارة، قلمه نافذٌ صريح، يُعبّر عن جَمَرِ معرفته بالأحداث والحوادث، مُبتكرٌ ألفاظ، جديداً المقاربات والمُشابهات، وكثيراً ما حوّل الخبر العادي إلى رُقيٍّ مرهف، تقرأه دون ملل، وتفهمه دون عناء، أسلوبه خاص، وصيغته منمازة، وبيانه مُنسّق واضح، ونفحة حارّة كتابةً وأسلوباً وتأليفاً وتعليماً، فلا الفكرة تعصاه، ولا الكلمة تتعثر، فاستقرت مقالاته على الحكمة، وحلّل بدقّة مُبالغ فيها أحياناً، وكانني به عاشٍ على شقّ القلم عيشة مرضية، أسهمت في امتلاك قُدرة ملاقة الكلمة المكتوبة مع الكلمة المُعلنة.

أيها الشرفاء الأوفياء،

الدكتور عبد الرؤوف سنو، كريم المحتد، صادق صدوق، جديّ سخّيّ وفيّ أمين، منفتح، صبورٌ جلود، نظاميٌّ، مُستقيمٌ، أبي النفس، جسورٌ صريح، نبيلٌ الأخلاق، صافي الضمير، مُتقفٌ مُتقف، صلّبٌ في الحق، جريءٌ الموقف، حضاريٌّ، حواريٌّ، سامي الكلمة والروح، عادلٌ، كُفءٌ.

يَقْطُ السريرة، منشرح رفيه، مُتواضع، متوقد الذهن، صَبِحَ الاستقبال، انيس المحضر، هنيء المعشر، رقيق الطباع، لا تهزه نشوة مقامٍ أو جائزة، ولا تهده محنة.

أيها الحفل الكريم،

- الدكتور سنو من رجالات النخبة والوصل بين أبناء المجتمع، على حيويته، صادق أعلام العقل، وأصحاب الرأي والفكر، فارتاحوا إلى نزاهته وعلمه وتجرده، ونبيله وحماسه في اصلاح معايب المجتمع وسقطاته.
- طاقة تعبير وتغيير، تجنّد لرفع التحديات والانهيال الوطني.
- استقرائي أمين للوثائق والمذكرات والتقارير والأحداث، ومحلّ دقيق للعلاقات والأهداف، ومكتشف خداع الدبلوماسية وتلاعيبها ومقاصدها ومراوغتها.
- لا هباء في كتاباته أو أقواله، بل معارف ضافية، ما جعله من كبار المؤرخين المثقفين الأفاضل.
- للفكرة عنده حرمة، تقرأه وأنت تخضع لمقياس القيمة، فلم تضع منه سائحة في مناهة، وظل على ثوابته العلمية في تنوع بحوثه.
- تحقيقاته وكتاباته ومناقشاته يثق بها المفكرون وأرباب العقول النيرة، لما تحمل من دلالات ومعانٍ والتماعات وحقائق.

ومن موقعه الفكري والتاريخي والأخلاقي والعلمي، كرم :

- عضوية الهيئة الاستشارية للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت
- بنيل وسام الاستحقاق الألماني من رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية
- بالحصول على جائزة الشيخ زايد عن كتابه "حرب لبنان"، وبدروع وزارة التربية والتعليم العالي، وجهات أكاديمية مختلفة، وبتنويهات متعددة، ولوحة شرف من عائلة سنو العريقة، التي وضع عنها كتاباً يتناول تاريخها ونشاطها ووجوهها.
- اختيار عضواً في جمعيات تاريخية لبنانية وألمانية وعربية فاعلة.

شارك في تعديل مناهج التاريخ في جميع المراحل التعليمية في وزارة التربية الوطنية، وفي الجامعة اللبنانية، والكلية الحربية، كما برز محاضراً مجلياً في المؤتمرات والمنتديات، وديج أكثر من مئة مقالة وبحث، وألقى أكثر من خمسين محاضرة، ونشرت له كتابات عديدة في الصحف والمجلات، وضع عدداً كبيراً من مقدمات كتب وراجع كثيرها، وأشرف على أطروحات ورسائل وناقش الكثير منها، وكانت له اسهامات أكاديمية متعددة ومقابلات مع مختلف وسائل الاعلام المحلية والدولية، المرئية والمسموعة والمكتوبة.

وليس مستحسناً في مثل هذا التكريم أن نضبط ما تم ذكره بتوسع، فأمامكم أيها الحاضرون متسع، لترافقوا الدكتور سنو على دروب مؤلفاته ونشاطاته في النشرة الملحق، على صوغ له رونق ونضارة، وطريق مذهب الحق.

أيها المثقفون

اهتم الدكتور سنو برفع مستوى طلابه، وجعلهم يدايون على القراءة والكتابة والمطالعة، ويمرّسهم على النقد العلمي، فيكتشفوا الحقائق.

وزع قلبه في التعليم فلذا على أجيال هي اليوم أمل الغد، وأتحفها بنفائس دراساته، وقد حصّد الكثير من سنابله الوفيرة. أوتي موهبة الكلام، وفن التدريس على رجاحة عقل وصواب كلمة ولم تغره مباحة فارغة، رغم خصوبة معارفه.

عَلَّمَ طلابه الرصانةَ ومعاداة الركاكةِ والخمولِ، والافادةَ من الوقتِ، ودوامَ التحضيرِ، والعملَ بدقةٍ وتأنٍ، ومحاربةَ السطحيةِ والأفكارِ الملتويةِ، فكان الأكاديميَّ الصارمَ، ورسولَ التعليمِ والعلمِ، والمتفهمَ لطلابِهِ، حالاتٍ وحاجاتٍ، باحترافٍ وحسٍّ خفيٍّ، فأصغوا إليه بارتياحٍ.

كرّس عمرَهُ للجامعةِ رسولاً ومربيّاً، مُرشداً ومُوجهّاً، أستاذاً وراعياً، ونطقتُ سنواتُ تعليمِهِ الحافلةُ بالجهدِ والخصبِ والعطاءِ بفضلِهِ، بحثاً وعلماً، وسلوكاً، وثقافةً، وتقيماً.

أولكتُ إليه عمادةَ كليةِ التربيةِ في الجامعةِ اللبنانيّةِ، فطوّرَ مناهجها، وضبطَ مستواها ورفعَهُ، برامجَ ورسائلَ وأطروحاتٍ ومؤتمراتٍ، ولجاناً علميّةً وامتحاناتٍ، واقتراحاتٍ. فسان الكليةَ وأنماها بكفاءةٍ ودرايةٍ ومبادراتٍ متناسقةٍ وأساليبٍ جديدةٍ مواظباً ومتفانياً على أمانةٍ حيّةٍ متجددةٍ، وثباتٍ في دائرةٍ الواجبِ بروحٍ عارمةٍ.

وله مساهماتٌ واسعةٌ في كليةِ الآدابِ لجاناً ومعادلاتٍ، ومسؤولياتٍ ورؤى، وتربوياتٍ. إنّه بحقٌّ من مفاخرنا العلميةِ في لبنانِ وألمانياِ والمشرقِ.

أيّها الأصدقاء،

قَطَعَ الدكتور سنوُ أزمناً عُمره نعمةً مع امرأةٍ "هُدى"، كانت موعده وحلمه الأبهي ومرآته المشرقة، فرافقتُهُ إحاطةً وحباً ورعايةً واستقبلاً وسخاءً وكرماً وضيافةً ولطفاً وذوقاً فنياً رفيعاً، وتوجيهاً لولديهما العزيزين وسامٍ وسمراً.

أيّها الصديق،

فلنُجزلِ اللهُ، عليكِ وعلى العائلةِ البركةَ والصحةَ والعافيةَ ولْيعضدك في مشاريعك وجهادك كي تواصلَ عطاءك الثرَّ، وكي تبقى وجهاً وطنياً وتاريخياً حراً ورائداً ومصالحاً وأخاً عزيزاً، وصديقاً دائماً الوفاءِ والمحبةِ والاخلاصِ.

ولْيَسِغِ اللهُ عليكِ نِعَمَهُ فوقَ ما عندك منها.

سَلِمَتْ لَنَا. عَشْتُمْ وَعَاشَتْ الحِركةُ الثَّقافيةُ وَعَاشَ لِبْنَانُ.

